

الزندقة:

نشأتها، أهدافها، طرق مواجهتها

الدكتور محمد حسين المرتضى

جامعة عمر المختار

من المشاهد اليوم أن التيارات الفكرية المعادية، والحركات الهدامة تشكل في مجموعها تياراً جارفاً، يزحف على المجتمعات الإنسانية في خبث ودهاء، ومكر وخداع؛ ليصرفها عن حركة الحياة، ويشغلها بما هو بعيد عنها.

ولا يخفى على كثير من الناس، أن الحركات الهدامة، تعمل بكل ما تملك من إمكانات على غزو مجتمعات الأمة الإسلامية، غزواً فكرياً، يشتت الأمة،ويضعف انطلاقها، ويقيّد حركتها، ويبعدها عن الواقع.

لقد تعرضت المجتمعات الإسلامية لهجمة شرسة، يقودها أعداء الإسلام والعروبة من خلال تيارات:

التبشير، والاستشراق، والصهيونية، والشعوبية، والزندقة، والحركات الهدامة، وهذه، وغيرها في الواقع، ليست إلا شعباً

مختلفة لمخطط أساسي، هو (القضاء على الإسلام).

لا توجد عند المسلمين فرق، وطوائف بالمعنى المعروف لدى اليهود والنصارى، وهم يعدّون أنفسهم أصحاب دين واحد، ونبي واحد وكتاب واحد، فلماذا التفرق والتحزب وهدم كيان الإسلام والمسلمين؟، فالمسلم أخو المسلم لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (سورة الحجرات/10).

وقد سار المسلمون على هذا المبدأ زمن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، إلى أن جاءت الفتنة الكبرى، التي وقعت بعد وفاته ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عهد سيدنا عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ، وما ترتب عليها من انتقال الولاية إلى سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، وما صاحب ذلك من أحداث دامية، قال الشهرستاني (صاحب الملل والنحل): " وأعظم خلاف بين الأمة، خلافها على الإمامة، إذ ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية، مثل ما سُلّ على الإمامة في كل زمان"[1] .

وهذا القول من أحد مؤرخي الفرق الإسلامية، يدل على ما لهذه المسألة من أهمية، وما ترتب عليها من نتائج بعيدة المدى في حياة المسلمين، وقد ترتب على الخلاف في الرأي حول مسألة الخلافة، ظهور الفرق الإسلامية، التي حاولت أن تصبغ نفسها بصبغة دينية، وبدلاً من أن تحتج كل فرقة بما يجلبه اتجاهها من المصالح ويدرؤه من المفاسد، أخذت تتحاجج بالكفر والإيمان، لأن الناس في هذه الفرق لا يستهويهم القول بالصالح العام، كما يستهويهم القول بالدفاع عن الدين، في الوقت الذي أصبح فيه المجتمع الإسلامي خليطاً من عناصر وثقافات متنوعة، وبدأ التصدع في الوحدة الإسلامية، فحاول بعضهم ممن لم يتشرب روح الإسلام أن يمزجوا بعض عقائدهم السابقة بتعاليم الإسلام السمحة النقية، وسعى بعضهم بالفتنة بين المسلمين، مستعينين بما وضعوه من أحاديث يروجون بها باطلهم، وقد انضموا إلى الفرق المعادية للدولة الإسلامية، مستترين بالدعوة لآل البيت.

وكان هدفهم الرئيس تفكيك الدولة الإسلامية، وتشويه الإسلام والمسلمين، ومن ضمن الفرق الهدامة (الزندقة) وهي موضوع هذا البحث.

---

(1) الملل والنحل، الشهرستاني، مطبعة السعادة، القاهرة، ص85.

المبحث الأول: تعريف الزندقة

الزندقة في اللغة :" من يبطن الكفر، ويظهر الإيمان" [1]. والزنديق في الاصطلاح : "من يروج أفكاراً فاسدة بين المسلمين، وهو يبطن الكفر ويظهر الإيمان، وعلامات الإسلام منه كاذبة" [2]. ولفظ" الزنديق فارسي معرب"[3]، فليس في كلام العرب (زنديق)، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة قالوا " ملحد ودهري" [4].

وقد عرب لفظ زنديق " في العراق أخذاً من المصطلحات الإيرانية أيام حكم الساسانين" [5]، ويطلق لفظ زنديق على من اعتنق مذهب (المانوية) والمسعودي أكثر المؤرخين وضوحاً، وأقدمهم في ربط الزندقة (بماني) زمنياً، إذ يقول " وفي أيام (ماني) هذا ظهر اسم الزندقة" [6] ، وكانوا يقولون بالنور والظلمة، كما ظهر مذهب (الزرادشتية) القائلين أن النور والظلمة متضادان، فلابد من أصل ثالث يسمونه الجامع، وظهر أيضاً مذهب (المزدكية) وقد أدعى صاحبه النبوة، وأظهر الإباحية حتى في النساء" [7]، ثم اتسع معنى هذا اللفظ، فأطلق على كل ملحد مبتدع، ثم تطور مرة أخرى، فأصبح يطلق على كل من كان مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة.

ولم ترد كلمة (زنديق) في القرآن الكريم. كما لم ترد في أحاديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا مرات قليلة، فقد أورد الإمام ابن حنبل في مسنده حديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((أنه سيكون في أمتي مسخ وقذف وهو من الزندقية والقدرية)) [8]، وروي الإمام الغزالي، حديثاً آخر لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ترد فيه كلمة الزندقة وهو: ((ستفترق أمتي بضعاً وسبعين فرقة كلهم في الجنة إلا الزنادقة)) [9].

---

(1) القاموس المحيط، الفيروز آبادي 3: 250.
(2) العقوبة، الشيخ محمد أبو زهرة، ص 158.
(3) رسالة في تصحيح لفظ الزنديق، ابن كمال باشا ص الأولى.
(4) فجر الإسلام، أحمد أمين، ط7، ص 108.
(5) دائرة المعارف الإسلامية، المجلد العاشر، ص: 140، مطبعة الاعتماد، القاهرة.
(6) مروج الذهب، المسعودي، ، طبعة باريس، 1963، 2: 167
(7) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ، مطبعة بولاق، القاهرة 9: 342.
(8) مسند الإمام ابن حنبل، مطبعة صبيح، القاهرة، 2: 136
(9) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، الغزالي، الحلبي، القاهرة، ص: 193

والمقصود بالزندقة في الحديثين السابقين، من يقوم بإدخال أشياء في الدين تمسخه وتشوهه، وتعمل على إضعافه وهدمه، وتفرق وحدة المسلمين، فهؤلاء في النار، وما داموا في النار، فهم خارج دائرة الإسلام.

المبحث الثاني: نشأتها وأهدافها

ظهرت الزندقة في صدر الإسلام، وكان عبد الله بن سبأ الذي ذكر الطبري أنه:" كان يهودياً أتى من اليمن من أهل صنعاء، فأسلم زمان عثمان"، وظلت يهوديته ملتصقة به حتى بعد إسلامه، فأبو الدرداء يقول له من أنت ؟ أظنك والله يهودياً، وطرده والي البصرة ابن عامر[1] ـ من أوائل الزنادقة، حيث وضع تعاليم لهدم الإسلام الإسلام وإضعاف وحدة المسلمين، فألف جمعية سرية لبثّ تعاليمه، واتخذ الإسلام ستاراً يستر به نياته. وأشهر تعاليمه : الوصية، وألوهية الإمام علي، والرجعة.

1. **الوصية**: ترتبط فكرة الوصية بالقول برجعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فإنه لم يمت، فهو غائب وغيبته مؤقتة، ولابد من إمام ينوب عنه، ويقوم مقامه، وهذا النائب في نظر ابن سبأ هو الإمام علي، وعلي أوصى لمن بعده وهكذا، وكان يهدف من إعلان ذلك على الناس، الطعن في أبي بكر وعمر وعثمان "وإن عثمان أخذها بغير حق" [2] وانتشرت كلمة الوصي بين الشيعة الذين استعملوها.
2. **ألوهية الإمام علي**: يقول صاحب الملل والنحل :" إن ابن سبأ هو أول من نادى بألوهية الإمام علي، وقال: في علي أنت الإله" [3]، وبذلك يكون السبئية هم أول من أله الإمام علي في حياته، وقد كانت هذه العقيدة أساسية في مذهبهم.
3. **الرجعة**:"الرجعة هي عودة الشخص بنفسه مرة أخرى بعد موته أو غيبته، وهي تفترق عن التناسخ الذي هو عودة الروح في جسد آخر بعد موت صاحبها[4].

---

(1) تاريخ الأمم والملوك، الطبري 4: 283، 326.
(2) خطط المقريزي، 3: 341.
(3) الملل والنحل، الشهرستاني 2: 174.
(4) أثر التراث الشرقي في أصول المذهب السني، د. علي الشابي، تونس ص:253.

وقد كانت فكرة الرجعة هي أول فكرة ألقى بها ابن سبأ في المحيط الشعبي، وهذه الفكرة مرت بمرحلتين:
الأولى: القول برجعة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ونطق بها في حياة الإمام علي.
الثانية: بعد موت الإمام علي نادى برجعته.

وأضافوا بعد ذلك :" أن علياً صعد إلى السماء، والرعد صوته، والبرق سوطه، وإذا سمعوا صوت الرعد قالوا السلام عليك يا أمير المؤمنين" [1]، ويقول الطبري في ابن سبأ: "أجمع المؤرخون قاطبة، شيعة كانوا أم أهل السنة، أن الذي أضرم نار الفتنة والفساد، ومشى في المدن والقرى بالتحريض والإغراء على خلفاء المسلمين، كان اللعين وشرذمته اليهودية" [2].

ويتضح مما سبق أن ابن سبأ دسّ على المسلمين أفكاراً باطلة، نقلها من اليهود والنصارى، جازت لبعض هواة الزعامة، فتلقفوها وجمعوا حولها ضعفاء الإيمان، حتى صارت أساساً لتكوين عدة فرق من الشيعة، تعرف بالفرق الباطنيةن وقد عدّد الإمام الغزالي من ألقاب الباطنية : (القرمطية، الخرمية، الإسماعلية، البابكية....[3]، وعلى هذا فإن آراء السبئية الغالية، تعتبر تبديلاً في الدين، وإن هذا التبديل يعتبر زندقة.

الزندقة في العصر الأموي

ظهرت الزندقة في العصر الأموي على يد (عبد الصمد بن الأعلى) مؤدب الوليد بن يزيد، و(الجعد بن درهم) مؤدب مروان بن محمد، ثم ظهر (حماد عجرد) ونظراً لقلتهم لم يشعر بهم أحد، ومن شعر بهم لم يرَ فيهم خطراً.

إلا أن بعض المفكرين العرب، كانوا يدركون خطر الزنادقة على الإسلام وأهله، فدافعوا عن الإسلام، وردوا على خصومه، منهم الإمام جعفر الصادق (80 -148هـ) في كتابه (توحيد المفضل)[4] الذي رد فيه على (المانوية)، ومن هذا

(1) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد، تحقيق محمد أبو الفضل، ط2، ج8، ص:20.
(2) تاريخ الأمم والملوك، الطبري 5: 66.
(3) فضائح الباطنية، الغزالي ص: 11.
(4) توحيد المفضل، جعفر بن محمد الصادق، النجف، 1309هـ.

يتضح أن الزندقة قد أطلقت في العصر الأموي على المانوية، ومن أنكر بعض آيات من القرآن، وكل هذه الآراء والمعتقدات مناهضة للإسلام وتعمل على هدمه.

الزندقة في العصر العباسي

"قويت حركة الزندقة في هذا العصر، واستفحل خطرها مما حمل المسؤولين على مقاومتها بشدة، فاضطر الزنادقة أن يتظاهروا بمظاهر متعددة، ويسلكوا أساليب مختلفة من أجل التستر على حركتهم، فاتسع لفظ الزندقة في هذه الفترة اتساعاً كبيراً "[1]، وسبب قوتهم تفشي الزندقة في أشخاص ينتمون إلى الفرس، حيث زالت دولتهم، فسعوا إلى إفساد عقيدة المسلمين بالانتساب إلى الإسلام، حتى يؤمن جانبهم، ويصلون إلى إحياء تعاليم دينهم المطموس، وإعادة سلطانهم.

وقد أطلقت الزندقة على (المانوية) في نطاق واسع، كما أطلقت على المجون والمجان، يقول الأستاذ جب:" وتجلت الزندقة بصورة أوضح في الاستهتار والاستخفاف بجميع المذاهب الخلقية التي تنضوي تحت اسم المجون" وكان الخليفة المهدي – تولى الخلافة سنة 158هـ - شديد الوطأة على الزنادقة، وقد أغراه بهم ما كان من فتنة المقنّع الخرساني في مدينة (مرو) الذي ادعى الألوهية، وكان يقول بتناسخ الأرواح، وما شاع في نواحي جرجان وفارس، وأطراف العراق من تعاليمه التي كانت متأثرة بتعاليم (ماني ومزدك) اللذين أحلا النساء وأباحا الأموال".

واستهوت تلك التعاليم الإباحية التي تدعو إلى التحرر من القيود الأخلاقية، وعدم التمسك بالتعاليم الدينية جمهوراً كبيراً من الناس، وقوي أمر الزنادقة، وعظم شأنهم، فقاومهم الخليفة المهدي مقاومة شديدة، وسيّر الجيوش لمحاربتهم، وتطهير البلاد منهم.

وكان الخليفة المهدي بعيد النظر في مقاومته للزنادقة، أصحاب تلك المبادئ الهدامة، بمنتهى تلك الشدة، لأن تعاليمهم تنذر بالتحلل من القيود الدينية والأخلاقية، وتعمل على انهيار المجتمع، وتفريق وحدة المسلمين، وإضعاف سلطة الحكام، والخروج على العرف والتقاليد، مما كان يجعل من هؤلاء الزنادقة عنصراً خطراً على سلامة الدولة.

(1) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم، ط7، ج4، ص: 239.

يتضح مما سبق أن الزندقة أطلقت على أشخاص وآراء ومواقف، استهدفت محاربة الإسلام، فقد أطلقت على من بدل بدينه الإسلامي ديناً آخر، وعلى من طعن في القرآن الكريم، وأنكر بعض آياته، وعلى من ادعى الربوبية، كما أطلقت على من أنكر التوحيد، وقال بوجود إلهين، وأطلقت على المانوية وعلى المجون، وعلى من يريد تفريق وحدة المسلمين وإثارة الفتن.

وعلى هذا، فالزندقة مظهر أساسي من مظاهر الشعوبية، وهي أعلى مراحل التحدي الديني والفكري والاجتماعي للإسلام، التي استهدفت هدم الإسلام، وأدركت أن هدم الإسلام هو السبيل إلى تحقيق أهدافهم الأخرى، لأن ضياع ملكهم كان على يد العرب، ولم يكن يتأتى للعرب ذلك، لولا دينهم الجديد الإسلام.

وفي الوقت الحاضر، نجد التشويه الذي أصاب صورة الإسلام، كان نتيجة أفعال جماعات من المسلمين، ترتكب الجرائم باسم الإسلام، وتقدم فكراً وسلوكاً يتعارض مع الإسلام، وتدعي أنه الإسلام الحق.

وأصبحت الأضواء مسلطة على الفكر الشاذ الذي اقتحم الساحة الإسلامية في غزوة شاملة، ونجح في بلبلة عقول بعض المسلمين، وإثارة الشكوك في نفوسهم، بحيث لم يعد الواحد منهم يعرف إن كان مسلماً حقاً، أو هو من الكافرين، بحسب تصنيف هذه الجماعات، وأصبح القابض على دينه كالقابض على الجمر، كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

إن القلق في أن يستمر هذا الخلط في المفاهيم، والتخبط في المواقف، واستيلاء الضلال على عقول بعض المسلمين، وفي ذلك خسارة يصعب تعويضها، لكن المجتمع العربي الليبي المتمسك بدينه الإسلامي، المطبق أن " القرآن شريعة المجتمع" المدافع عن الإسلام والمسلمين في كل مكان من الأرض، لن تؤثر فيه ـ بإذن الله ـ هذه التيارات والمظاهر الفاسدة.

المبحث الثالث: طرق مواجهتها

إن واجب المثقفين الأول أن يتصدوا لهذه الغزوة على الإسلام وأهله، وهي غزوة مخططة وممولة من الخارج، هدفها تشكيك المسلمين في جوهر وجودهم، وإثارة

التوتر في مجتمعاتهم، وتحويل المسلمين إلى أعداء لأنفسهم، والقضاء على جهود التقدم بأيدي بعض المسلمين المتحمسين الذين ضلوا الطريق.

إن المعركة الفكرية ضد أعداء الإسلام الذين يناصبون الإسلام العداء، وهم يحسبون أنفسهم المدافعين عنه، هي أخطر المعارك، لأننا نستطيع أن نعرف العدو، ومنازلته ممكنة مهما تكن قوته، والانتصار عليه لن يكلفنا الكثير، لكن دخول المعركة – بما تستلزمه من ضحايا – مع بعض المسلمين الذين نعرف أنهم مضللون، لأنهم يفسدون الإسلام، ويظنون أنهم المصلحون، ويقتلون المسلمين وهم يصدقون من يحرضهم ويدعي أنهم كفار، وأن هذا هو الجهاد المفروض شرعاً.

وإن المسلم الحق يجب عليه ألا يسارع بالحكم على أحد بالكفر، لأن الإيمان والكفر محلهما القلب، ولا يطلع على ما في القلوب غير الله سبحانه وتعالى، ولا تكفي كل الأغراض أو القرائن الظاهرة معاً، بوصفها أدلة يقينية على ما في القلوب، وأقصى ما نصل إليه هو الظن، والقرآن الكريم نهى المسلمين عن أتباع الظن، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (سورة الحجرات/12). كما أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ منع المسلمين من اتهام أحد بالكفر وهو يعلن إسلامه فقال: ((من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما))، ومعنى ذلك أنك إذا قلت لمسلم: أنت كافر، والله يعلم أن هذا الرجل مسلم بحق، أصبحت أنت الكافر عند الله، لماذا ؟، لأن تهمة الكفر تهمة كبيرة بحيث لا يملك إنسان سلطة إصدار الحكم بها، والإسلام يدعو إلى درء الحدود بالشبهات.

لكن كيف يعرف الناس العاديون الفرق بين فكر وفكر، وبين مذهب ومذهب، وبين كلام هو الإسلام بحق، وكلام آخر عن الإسلام في حلاوة العسل، ولكن السم يختفي في هذه الحلاوة؟.

إن مواجهة التيارات الفكرية المعادية، والظواهر الهدامة، يجب أن يتم عن طريق التربية، لأن المبادئ الإسلامية بمفاهيمها الأساسية، ومناهجها التربوية، تصنع شخصية متميزة، لها سماتها، وغاياتها الخاصة، ولهذا كان من واجب المكلفين بالتربية والتعليم في كل مراحل التعليم، ورجال الوعظ والإرشاد والإعلام وكل المثقفين والأسر، أن يراعوا النقاط الآتية:

- العمل على جعل الإنسان إيجابياً، يعيش في حركة فكرية، ونفسية وجسدية بناءة بعيداً عن السلوك التخريبي، رافضاً التحجر والجمود، لا يرضى بالسلوك الانسحابي الذي يتهرب من نشاطات الحياة، ويبتعد عن مواجهة الصعاب.
- تأهيل الإنسان للعطاء، وتنمية القدرة فيه على الإنتاج والإبداع، بما تفتح له من آفاق التفكير والممارسة.
- إعداد الإنسان لكي يمارس الحياة بالطريقة التي يرسمها ويخطط أبعادها الإسلام؛ لأن الحياة في نظر الإسلام عمل، وبناء، وعطاء، وتنافس في الخيرات.
- جعل الشخصية الإسلامية شخصية متزنة، لا يطغى على مواقفها الانفعال، ولا يسيطر عليها التفكير المادي، ولا الانحراف الفكري اللامعقول.
- جعل الإنسان المسلم يشعر دوماً أنه مسؤول عن الإصلاح، وعليه أن ينهض بمسؤوليته بكل جد وإخلاص.
- بيان أن الإسلام فيه تعادل دقيق بين مطالب الأرض ومطالب السماء، لا تغلب إحداهما على الأخرى، والدليل أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، شاهد في المسجد رجلاً عاكفاً ليله ونهاره، فسأل من يعوله؟ فقيل له: إن أخاه ينفق عليه. قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أخوه أفضل منه. أي إن من يعمل ويكد ويعرق ويأكل من عمل يده أفضل ممن يصلي طوال النهار، ويقوم الليل كله، وهذا يجعلنا ندرك أن الإسلام دين ودنيا.

وأخيراً فمن حق الأمة الإسلامية، أن تنتبه على الأخطار الفكرية والظواهر الهدامة التي تحدق بها، والمواجهة لن تتم إلا بالتعرف على التيارات والظواهر التي تنتشر بين المسلمين ومواجهتها مواجهة فكرية؛ لأن المعركة معركة فكرية والمعارك الفكرية تكون مواجهتها بالفكر، والوعي، والفهم، والعلم.